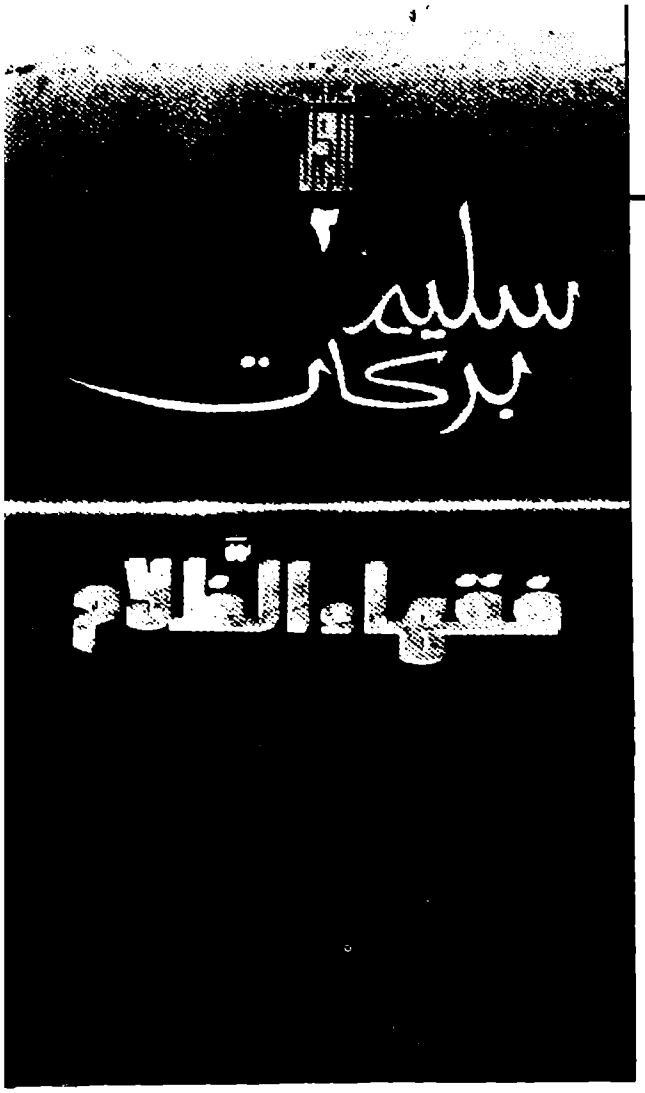

وهج التراث الكردي

في رواية فقهاء الظلام

طارق جمباز

ان المبدع يفرض نفسه عاجلاً أو آجلاً، اذا كان العمل الذي يقوم به يعبر عن طموح وتطلعات المجتمع الذي يعيش فيه وفي النهاية يكون مرآة عصره، وان المبدعين يحاربون من قبل المتمسكين بكل ماهو قديم ومتحجر ولكن بسبب استباقهم الآخرين في العديد من المجالات يشار إليهم بالبنان وتتمنى كل امة بان يكون لها مبدعون يبدعون في كل مجالات الحياة لكي تفتخر بهم امتهم. ولقد قدم الكرد ويقدم الكثير من المبدعين الذين برزوا واستطاعوا فرض انفسهم في مختلف الساحات وماأمير الشعراء احمد شوقي وداعية تحرر المرأة العربية قاسم امين... الخ إلا لتذكير صدق ما نسوق اليه وكتب عن هؤلاء الكثير، غير انه هنالك مبدع استغرب لماذا لم يكتب عنه علماً ان نتاجاته على درجة من القوة بحيث فرضت نفسها في عالم الكتابة.

ويتبين لنا لاحقاً ومن خلال آراء الكتاب عنه. فهو ذو قلم اصيل ورصين وذو رأي صائب وسديدو ذهنية متوقدة ثاقبة إنه شاعر وروائي وكاتب وان ماكتبه يعبر عما يجيش في صدره من افكار نيرة ومتوهجة عبر عنها بكلمات انسابية معبرة وصادقة وبلغة شعرية شفافة مرهفة، تقود المرء الى عوالم جديدة وحديثة و باسلوب وتكتيك ومضمون يضاهى اسلوب وتكتيك وضمون اشهر الكتاب في العالم. تتدفق الكلمات كالسيل الجارف لديه ويقول كلمته بجرأة نادرة وبلغة خاصة به وبد قراءتي (المجموعات الخمس) الشعرية وكتاباته في المجلات وعلى رأسها

مجلة (الكرمل) حيث يعمل (كسكرتير تحرير) فيها والتي تصدر عن اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينين ولقد اعجبت أيما اعجاب بروايته (فقهاء الظلام) التي كتب عنها بغزارة، غير اننا نحن ابناء امته لم ننهض ولو بكتابة اسطر قليلة للألمام بفكره وعـاملة الخـاص ولهـذا السبب بدأت بكتـابـة هذه الكلمات البسيطة والعاجزة عن التعبير عن الوفاء لما قدمه هذا المبدع وحين يقرأ المرء أي نتاج من نتاجاته، فأنه يعرف بسرعة بانه ينتمي الى أمة (الكرد) حيث الابطال والاجواء مجريات الاحداث وتوظيف التراث في كتاباته بشكل فذ ورائع وكل ماقام به انما كان من اجل تعريف الشعب الذي ينتمي اليه بالعالم.

وروايته مكتوبة باللغة العربية بيد أنها تعتبر رواية كردية لان روحها كردية كما ان الروائي نفسه يقر بذلك بل وأن كل مافي الرواية يؤيد ما ادلى به الروائي.

يقول الاستاذ ابراهيم العريس[1] مبدياً رأية في المبدع «المفتاح الاول لفهم عالم سليم بركات هو القدرة على استقراء لغته. غير ان هذه القدرة مرتبطة بقدرة اخرى على الغوص في التراث فلغة سليم بركات مستقاة مباشرة من التراث.» ويقول في صفحة أخرى:

«وبـالتحـديد عبر تراث يعبق بكل روائح البيئة الكردية التي ينتمي اليها، وبكل زخم الواقع العربي الذي بات يشكل جزءاً منه» والاستاذ كاظم جهاد[2] يقول عن المبدع «سليم بركات حالة خاة في الكتـابـة بالعـربيـة. يدهش، اولاً، في غزارته ثانياً: في حسـاسيتـه اللغـوية. الفصاحة العالية تجاوز الكلام الاكثر بساطة، والتحشيد الفخم للصور تتخلله لحظات هي من اكثر مايمكن قرباً من الصمت، وعندما سأله الاستاذ كاظم جهاد عن روايته (فقهاء الطلام) قال: «خططت لـ «فقهاء الظلام» بتدبير أولي، هو خطوط عامـة للشخصيات وللتواريخ برغم لا واقعية حدتها الرئيسي» ويضيف ايضاً «اما انا فأصفها رواية كردية، لم أقحم طفولتي، او صباي، في سطر منها، ولم ألق عليها بشبح شخص ما، بل بشبح جهة مديدة هي الشمال التي تحدها ذراعا كاتب» وعنـدمـا سأل: (يتبدى لديك هاجس واضح في تقديم عربية صافية، متشبعة بالتراث وغنية. هل ينبع هذا من تربية لغوية معينة او تصور خاص للكتابة؟

فاجاب : «دخلت المدرسة في سن السادسة، دون أن اعرف حرفاً من العـربيـة. وكان ذلك دأب الاكراد على أية حال» ويضيف ايضاً «أنا لا أنحي لفظة اعتقدها شاقة على القارئ، ولا اجد غضاضة في اضافة مركبين لغويين في سياق واحد: ذلك مايخافه من يجعلون شرطي القارئ رقيباً على بياض أوراقهم».

اسماء (الشخصيات) في رواية :ـ

يقول الروائي عن شخصياته :

الحمقى الذين قبلوا الاشتراك في هذه الرواية:

الملا بيناف بن كوچري

برينا بنت عقدى ساري، زوج الملا

كرزو، زيوان، عاني، حمزات: أولاد الملا من زوجته الأولى .

خاتي بنت كوچري ، أخت الملا

بيكاس، ابن الملا بيناف من زوجه برينا.

سينم بنت مهمد بن كوچري، زوج بيكاس.

مهمد بن كوچري، اخو الملا بيناف.

مجيدو بن عقدى ساري، أخو برينا.

باقي جواني، الضحية الثرثارة (يقتله مجيدو).

ابن زاري ، جد برينا

عقدي ساري، والد برينا، وجد بيكاس.

جهور ساري، اخو عقدي .

عيشانه بنت أوسي بدرخان، زوج مهمد.

سطامو لاوي حجي عباس، مهرب التبغ.

حشمو، زوج خاتي.

حيندر، صاحب الثور

حسين بن كوچري، ذو القرنين، والد الملا بيناف.

حسو (حسين) المير سيني، جد الملا بيناف.

باران بن ساري، جد عفدي.
عبدالصمد بن باران، والد عفدي.
زيركه ، أم برينا

گلش ، أخو عيشانه، خال سينم
سربست (حجر النشادر) بن گلش
جگر خوين، خال الملا بيناف .

وفيما يلي روائح البيئة الكردية ذو الرائحة النابعة من اعماق التراث الاصيل:

١ـ «احـرقن خصلة من شعركن قرب الفراش، قبل أن يدخل عليكن الرجال، لتجعلنهم متعلقين بأجسادكن الى الأبد» وهذه نصيحة الامهات الى بناتهن عند الزواج.

٢ـ «أسنان أبي تتخلخل. إذا خلعت أسنانك ارمها الى الفضاء وغمض العينـين» سألهـا بمـرح «ولماذا علي أن أفعل ذلك؟»، فردت: «حتى لا يأخذها الشيطان. إرمها الى الفضاء مغمض العينين».

٣ـ «تنتفض صارخة بالاولاد اللاهين «فليتبول عليكم عزرائيل».

٤ـ وهم يدعون أرباب الكتاتيب، عادة بلقب «فقيه».

٥ـ «لكن عينيـه لاتفـارقان وجه «بائي جوانى» ذي الشاربين الاحمرين بفعل الحناء.»

٦ـ «فكـر ان ما سمعه هو صدى صرخته في المملكة البيضاء الباردة على مدى بصره، لكن اسمه تكرر ثانية، على بعد خطوات منه، فأجفل واقفاً»
يأتي ذكـر السعلوة (مـێردەزمـه) في حكـاياتنا حيث يتقمص الحيوانات ويقف على قارعة طريق موحش وينادي على احد ما فيدخل الرعب في قلبه وقد يميته -

٧ـ «أن تروي له حكاية البقرة التي أكلت قرية «توبز»..
: بقرة البقرات أكلت القرية بيتاً بيتاً، فانتفخت حتى صارت في حجم هضبة «موزان».

٨ـ اضافت امي لحية الى وجه الحيوان. لماذا اللحية؟ سألناها فأجابت ان الحيوان هو صورة روح شريرة، وقد أضفت اللحية لأجعلها روحاً انيسة.»

٩ـ «يتعمدون البحث عن قطعة تصلح رقبة وتعديذة، كثير من الخـرز الكبـير كان يتدلى على غرر الاطفال وقد ألصق بشمع العسل الى الشعر وخرمت رقائق خزف كبيرة، ايضاً، لتتدلى فوق الابواب.»
ولقـد كان هذا الاعتقاد شائعاً الى عهد قريب (لەپكه شين = الودع) ويعني ردع عيون الحساد، لوقاية الاحياء والجمادات ايضاً من شرها.

١٠ـ «فما كان منه إلا ان اخرج كيس النشادر من تحت عباءته، ودس حفنة منه في مؤخرة الحيوان «مايكفي ليصعد نهر جغجغ مجراه الى أضنه».

١١ـ «نعم. ذهل حين رأى الأصابع أول مرة فقطفها، فنمت في اليوم الثاني فقطفها» ويشبه هذا في حكاياتنا الكردية حول قطع رؤوس الافاعي ونمو رؤوس اخرى محلها.»

١٢ـ فتتلفظ البنت باختناق : «ستخنقني الجن». فيربت جهور على ظهرها: «أي جن يا ابنتي؟ أنا لن اسمح لجن بأخافتك».

لكن الطفلة تزداد تشبثاً بثـوب ابيها، وقد دفنت وجهها بين

ساقيه: «إنها في الزقاق ياأبي» تقول ذلك بإلحاح من يرى شيئاً ظاهراً تلمسه اليد»

١٣ـ «فكان الرجل، إذا مشى، يجر وراءه ذيلا من النبات كذيل العباءة. ولما اصفر حرشوف البرية، في ربيع ذلك العام، اصفر «أوسي» بدوره، ثم يبس ومات. مذ دفنوه في مقبرة موسيسانا، بات الحرشوف يغطيها كل ربيع»

١٤ـ «أن سينم أنجبت ابناً ذكراً على هيأة ابيه في انقلاباته، وما كادت تحل الساعة الثانية من ولادته حتى كان يتحسس شاربيه كمن يتفكر في اعتذار مناسب... فأكمل ابن ابنها مالم تقله هي في جملتها: «بيكاس. فلاكن بيكاس الثاني ياجدتي. هذا هو اسمي «بيكاس»

ويشبه هذا ولادة شيخ فرخ تماماً.

١٥ـ «لكنها لاتنسى لمسات الشبح الذي يمر بالساحة غارقاً في بياض عباءته، وبياض شعره وعينيه»

وهذا يذكرنا بشخصية (خدري زينده) في حكاياتنا حيث يقال انه ابيض في كل شئ ولاظل له.

١٦ـ «والاكيد ان قصص الآباء هي التي تبقي الملهاة اليقظانة في كما لها، وهذا تأكيد على بقاء وخلود حكاياتنا.

١٧ـ «سربست الكلب» ، قالت أم سينم» وان السب والشتم في التراث نوعان ١) للتجريح والتشهير ٢) للمدح والثناء

١٨ـ انهم يتقدمون ، الآن، صوب بيكاس الذي ينتظرهم، بخطى أقرب الى الهرولة التي بدأتها سينم»

وإن الشخصية المحورية والرئيسية في الرواية هي بيكاس الاول والثاني حيث ان ولادتهما غريبة وعجيبة.

* «ماذا ستسميه ياسيدنا الملا «سأله احد الحاضرين. «بيكاس» رد الملا، كأنما هيأ الاسم من زمن. حاول السائل مجاملته، وقد فاجأه الاسم قليلاً: « (لماذا تدعوه بالوحيد، ياسيدنا، وسلالتكم كبيرة بحمد الله؟) رد الملا ليس لأحد سوى خرافه، وبيته، وقمحه الذي يخذله احياناً فيتركه عارياً». ازدرد السائل الرد، وانكب يشتغل على لفافته بلسانه، يرطب البوق ليلصق طرفاه.

* فهذا الـ «بيكاس» أغلق صورة الأبوة على نفسه بعد ساعتين من ولادته، حيث رأياه وليداً فاختزنا ما تختزن الأبوة تجاه وليدٍ، ثم نما خارجهًا على نحو يجعل الحيرة والدهش سيدين على أحاسيسهما.

* «لماذا لاتسألني كيف انمو بهذه السرعة؟». فتح «كرزو» فمه كمن وجد سؤالاً، فلم يدعه «بيكاس» ليكمل، ملتفتاً الى الخلف، حيث الابوان اللذان تلألأ في عيونهما السؤال ذاته «اللعنة» تمتم، «كيف سأشرح مالاطاقة لي به. انا مذهول مثلكم، أراكم كل ساعة أشخاصاً آخرين، ينمون معي سنة بعد سنة، في تسارع يختلط فيه فهمي الثابت لأشياء أعرفها عنها قبل مجيئي». صمت برهة، وأضاف «حيرتي حيرتان: حيرتكم بي وحيرتي بكم، فلنتقبل الامر معاً، إذ لم يبق من الوقت إلا أقله. انظروا، قد اصبح في الاربعين عصراً. والليل.. لاأعرف.. ثمة شؤون علي ان انجزها معك ياأبي، فالدورة دورة، سواء أكتملت في يوم أم في عشرين ألف يوم. سيكون قاسياً عليك شرح ذلك لهؤلاء الواقفين خلف البوابة والمنتظرين جواباً قاطعاً. إنها محنة، فتهيأ لذلك فقط، وانس حيرتك في»

* «إبني بيكاس، الذي ولد فجراً، ينمو في الساعة الواحدة ما يقارب ثلاث سنين. مشيئة الله. وإبني يريد ان يتزوج اليوم، اعتقد انكما فهمتما لماذا اغلقنا البوابة في وجوه الزائرين، لاأريد أسئلة كثيرة، لأنني منتفخ بالاسئلة التي تدور في رأسي. أريد كما أن تستسلما لأكذوبة، لا اكثر، ولا اقل».

وبيكاس يذكرنا بحكاية كردية مشهورة هي حكاية (شيخ فرخ و خاتو آستي) منتشرة في انحاء كردستان، حيث هنالك تشابه في كثير من النوحي واستطيع ان اقول أن الروائي قد وظف الحكاية بشكل آخاذ واضاف اليها الكثير من الملامح المعاصرة و الحديثة وبذلك استطاع تعريفنا من جديد وبشكل محدث، بهذه الحكاية وفيما يلي نقاط التشابه في الرواية وحكاية (شيخ فرخ وخاتو آستي) التراثية الكردية

١ـ البطلان في الحكاية والرواية في يوم مولدهما لايتمكنان العيش بدون إمرأة.

٢ـ في يوم ولادتهما (يتكلمان ويمشيان) وهذا يشبه حادثتي ولادة عيسى عليه السلام وبوذا.

٣ـ بالرغم من صغر سنهما لكن ادراكهما يفوق ادراك انسان بالغ.

٤ـ يفرضان آراءهما ومايريانه صائباً على الاخرين.
٥ـ كلاهما غير مرغوبين لانهما يولدان كطفلين عجيبين وغريبين بسبب من طفولتهما غير المألوفة، لذا تحاول اسرتاهما التخلص اتقاء لتشنيع المجتمع بهما أي بالاسرتين.

ان سليم بركـات له عالم خاص يجمـع بين عوالم كثـيرة من اسطورية و سريالية وفنتازية وواقعية سحرية، كل هذا باسلوب متميز وبلغة خاصة به.

وفي المجمـوعات الخمس ايضاً وهج التراث الكردي وفيما يلي ابيات مختارة:

١ـ «أرى شمـدين» على بغلتـه الشقراء يغني اغنية الكردي محاطاً بنساء «بريفا» ونساء «بريفا» يحزمن لشمدين جسارتهن مع البرسيم الاخضر.»

٢ـ فلاّ دعّ ديلانا قليلاً لشأنها لشأنه.

٣ـ قديما، في القديم القريب ـ حين دحرج الشمال اعمارنا على امتداد سكة الحديد بين «تربسبي» و «ماردين» وفاجأنا صوت القطار الكهل»

وهنالك كاتب آخر وظف التراث الكردي في قصص قصيرة وهو الاستاذ فاتح المدرس في مجموعته باسم (عودة النعنع) ويتجلى ذلك في الاسماء (سجو، رحو، خيرو، رشو، راجو، عالو، دهرويش آبهسى نازه) وفي صفحة ١٧ جاء فيها «فانحدرت (عالو) وراحت تركض وتغني كندر، كندر كندرا) وهي اغنية كردية قديمة يغنيها الاطفال الاكراد الجياع ومعناها «كوسه، كوسا، كوسايه واردفت:

كندر كندر كندرا
كند تغابرغوا

ومعنى ذلك ان الكوساية مع البرغولاية.. الى آخر ماتبقى من الانشودة:

كندر وينا هندركن
كندر وينا ماليكن

ويقـول الاستـاذ سعيد حورانيه عنه «قصص فاتح» كافضل لوحـاته، وبعضها كعود النعنع ورشوا آغا من افضل ماكتب ادباء العربية على الاطلاق.

مؤلفات المبدع (سليم بركات)

١ـ المجموعات الخمس (الطبعة الثانية)
أ ـ كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً
ب ـ هكذا أبعثر موسيسانا
جـ ـ للغبار للشمدين لأدوار الفريسة وادوار الممالك.
د ـ الجمهرات.
هـ ـ الكراكي.
٢ـ كنيسه المحارب (يوميات) ط ١ : ١٩٧٦
٣ـ الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) ط ١ : ١٩٨٠
٤ـ هاته عالياً، هات النفير على آخره (سيرة: الصبا) ط ١: ١٩٨٢
٥ـ ارواح هندسية رواية ط ١ : ١٩٨٧
٦ـ فقهاء الظلام رواية ط ١ : ١٩٨٥ كتاب الكرمل « يصدر عن اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين. (٢٠٤ من القطع الكبير)

٧ـ بالشباك ذاتها، بالثعلب التي تقود الريح (شعر ١٩٨٧).

المراجع :

١ـ الكتـابـة في الزمن المتغـير (في تجربة الصحافة الثقافية) ابراهيم العريس ص ٢١٩ و ص ٢٢١
٢ـ مجلة «اليوم السابع» العدد ١٤٠ السنة الثالثة ـ الاثنين ك٢ ١٩٨٧ ص ٣٦ ، ص ٣٧
٣ـ فقهاء الظلام عبارات او فقرات التي بين الاقواس مستقاة من صفحات ٢٥، ٣٠، ٣٤، ٣٨، ٤٤، ٨٥، ٨٨، ١٠٨، ١١٦، ١٢٨، ١٤١، ١٤٤، ١٧٩، ١٨١، ١٩٠، ٢٠٤ وكذلك ٨، ١٥، ١٦، ٢٢.
٤ـ للغبار، لشمدين، لادوار الفريسة وادوار المماليك ص ٢٥
٥ـ الكراكى ص ٢٠١
٦ـ الجمهرات ص ٢٧